صانع ساعتها هو صانع (Big Bin) وحصان الدكتاتور محنط في إحدى قاعاتها

القشلـــة شاهد حـــي على تأريخ بغـداد

تحقيق وتصوير مفيد الصافي

دفع الشيخ عدنان إحدى صفحتي الباب الحديدي الأسود ليطل الى عالم آخر .اتجه يسارا ،توقف أمام القبة الشاهقة واخذ ينظر الى جدرانها الداخلية المرصعة بالزهور النحاسية الجميلة والمختلفة الإحجام ، رفع رأسه أكثر ،وهناك في القمة ،أعلى القمة ،ثمة آثار عش قديم ،تذكر بحزن اللقلق الأبيض الكبير. كان أهل محلة ١١٤ في بغداد يتفاءلون به.ولكن ذلك اللقلق اختفى يوما ما،لربما أخافته أصوات المدافع التي أشعلها الطاغية في بداية استيلائه على الحكم ،وقد يكون تعرض الى شيء ما ! ،او انه أدرك ان الظلام قادم فقرر ان يترك جدران القشلة ومحيطها الى الأبد !!

جولة مع الشيخ

الشيخ عدنان الجابري ،٦٢ عاما،خريج كلية الآداب قسم الآثار عام ١٩٦٨ ،بدا حديثه قائلا " تمتد بناية القشلة على الضفة الشرقية لنهر دجلة في محلة السراي مقابل مبنى السراي وبجوار سوق المكتبات.والقشلة لفظة تركية مأخوذة من فعل(قاشلاغ) بمعنى أشتى والمشتي،وصارت لفظة القشلة فيما بعد اصطلاحا يطلق على ثكنة الجند،أي مكان تعسكر الجند وعدم خروجهم للحرب في فصل الشتاء او قل إنها كانت دار استراحه لهم".

بداية القشلة

بدا الشيخ تنقله عبر ممر طويل ،تمر من فوقه أقواس عديدة ،دخل الى إحدى القاعات الكبيرة، توقف برهة ،أعطى بعض الإرشادات الى احد العمال، الذين يظهرون فجأة في زوايا القشلة الواسعة الأطراف، ثم واصل كلامه" يعود بناء القشلة الى زمن الوالي نامق باشا سنة ١٨٥١-١٨٥٢ ومن المرجح ان بناءها تم في الفترة الأولية لتوليه بغداد فجعلها بطابق واحد فقط وعرفت باسم قشلة البيادة (ثكنة جنود المشاة).جاء بعده الوالي مدحت باشا ١٨٦٨- ١٨٧٣ميلادية ليكمل بناءها ويجعل لها طابقا ثانيا ويشيد برجا عاليا في وسط ساحاتها ووضع عليه ساعة لإيقاظ الجنود .بقي المبنى مشغولا ومستعملا وظيفيا منذ إنشائه حتى الان.غير ان وظائفه تنوعت بتوالي الأحداث فقد رفع العلم البريطاني فوق برج الساعة عام ١٩١٧ بعد هزيمة الجيش العثماني ثم استعمل المبنى مسكنا للضباط الانكليز وعائلاتهم".

دار الحكومة

كان الشيخ ينظر الى الساحة الواسعة التي تتوسط المكان ، التي تحدها من جهة الشط ،اشجار الصفصاف العملاقة "في هذه الساحة تم تتويج الملك فيصل الاول عام ,١٩٢١ في احتفال كبير حضره رجال الدولة الجديدة وعلية القوم ".انه يتذكر صورة شاهدها في المتحف البغدادي،كان الملك بجسده النحيل، جالسا جلسة غير مريحة على كرسي كبير، وبجانبه يقف عبد الرحمن النقيب اول رئيس للوزراء وضابط انكليزي رفيع المقام.

"لقد استغلت الحكومة انذاك المكان الواسع في القشلة كمقرات للعديد من الوزارات وجعلته مقرا لبعض دوائر الدولة .حتى انها استغلت احدى قاعاته لتكون المتحف العراقي في سنة ١٩٢٣ ،في احدى غرف الطابق الاول من المبنى .واستمر اشغال المبنى من قبل دوائر الدولة حتى اتخاذ القرار بصيانته بوصفه مبنى تاريخيا وتراثيا في عام ١٩٨٩".

انهيار القشلة

نظر الشيخ الى اجزاء القشلة المترامية ،وتحدث مفتخرا قائلا "ان الباحث الاثاري يمكن ان يكتشف اخطاء المؤرخين ويكشف الكثير من الاسرار".ثم واصل كلامه:

"لقد تعرض المبنى الى الانهيار ايام الملك فيصل الذي كان يدير شؤون الحكومة منها،اذ غطست جدران القشلة في نهر دجلة وظهرت كثير من الجدران الملونة بلون اخضر واضحة في جانب الكرخ،فقد كان تيار الماء القادم من جهة خضر الياس قويا مما سبب تاكل السدة وانهيارها .واضطر الملك فيصل انذاك الى اتخاذ قصر شعشوع في مدينة الاعظمية مكتبا له".

ساعة القشلة

تحرك الشيخ نحو البرج الكبير وحينما وصل هناك اشار بيده الى الساعة الكبيرة قائلا "انشيء برج الساعة الكائن وسط الساحة الداخلية لمبنى القشلة على ضفة نهر دجلة وبامتداد المحور البصري للمدخل الرئيس وذلك لايقاظ الجند صباحا.

يبلغ ارتفاع هذا البرج المجوف ٢٣ مترا،وهو يقوم على قاعدة رباعية الشكل. تقوم فوقها ساعة ذات أربعة أوجه تغطيها عقد نصف دائرية ويتوج هذا البدن قبة مضلعة وضع في قمتها علامات للاتجاهات الجغرافية والرياح وقد حدد بناء قمة البرج على اثر سقوطه في الثلاثينات من القرن العشرين،ونتيجة لهذه الصيانة فقد حذفت الشرفة القائمة فوق الساعة.وهنالك تشابه بين برج ساعة القشلة وبرج ساعة الشيخ عبد القادر الكيلاني التي شيدها عبد الرحمن النقيب عام ١٨٨٩ ،كما هو مدون عليها بخط الطغراء.

الساعة العظيمة

واصل الشيخ حديثه قائلا "هل تعلم ان صانع هذه الساعة هو نفس صانع ساعة (Big Ben) الشهيرة في لندن ان الساعة التي تراها امامك تعتبر واحدة من أقدم وأكثر الساعات قيمة وهي مهداة من صاحب الجلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا. ولكن من المحزن ان تعرف ماتعرضت له هذه الساعة العظيمة في وقت الانفلات الامني .لقد سرقت بعض اجزائها الداخلية،واراد اللصوص ان يسرقوا جرسها النحاسي الذي يزن طنا ولكن مصلحا للساعات ويدعى جنيد قام بمنع سرقة الجرس

في منزل الوالي

توجه الشيخ عدنان الى منزل الوالي،الذي يقع في الجهة الشمالية من القشلة .كان منزلا كبيرا يضم الكثير من الغرف الواسعة ، ويحتوي على حديقة كبيرة تتوسطها نافورة .له باب كبير اخر ينفتح على نهر دجلة ،ضحك الشيخ ساخراً وهو يقول "اتعلم انني الى حد الان لااملك بيتا خاصا بي لقد كنت اسكن في موقع(البانوراما)في سلمان باك ،في منزل تابع لهيئة التراث والاثار وفي احد الايام وصل ارهابيون وتحت تهديد السلاح أرغمونا انا وولدي على ان نصعد في صندوق السيارة وكان صندوق آخر بانتظار اخي وابنائي الاخرين ولكن في اللحظة الاخيرة اعفي عنا وطالبونا بان نترك المنطقة لاننا (خونة)،ثم أجرت منزلا آخر في الدورة ولكني وجدت ان الوضع هنالك ليس بأفضل من سلمان باك .سوف اؤجر اخيرا منزلا في منطقة الصدر"

الترميمات الجديدة

واصل الشيخ حديثه قال "لقد قررت وزارة الثقافة، قبل ان يتحول الامر الى وزارة السياحة والاثار ،ان تعيد تأهيل المبنى الذي تعرض الى عمليات السلب والنهب أيام الانفلا ت الامني .وبدات عمليات الترميم منذ ١٥-١-٢٠٠٥ والسقف الزمني الموضوع لهذه الأعمال لغاية ١٥-٩-٢٠٠٥ ولكن العواصف والناحية الامنية اعاقت العمل.ان المقاول الرئيسي الذي تسلم المناقصة يعطي العمل الى مقاولين ثانويين. يختص بعضهم في اعمال النجارة،ويختص اخرون باعمال الحدادة ،كما هنالك المختصون بالتاسيسات الكهربائية".

تحدث مع احد النجارين الذي كان يقشط الخشب ثم يضعه في اكياس خاصة ثم واصل كلامه " ان اعمال الصيانة في المبنى بكلفة تقرب من المليار دينار تتضمن أعمال الترميم تنعيم الخشب وصيانة وتبييض المرمر والأبواب واعادة تاسيس الكهربائيات ،ووضع ارضية جديدة. ،وحاليا نحن نشرف على اعمال الصيانه التراثية للابواب والديكور، نركز على صيانة الاقواس والابواب والشباك.قبل يومين تم الاتفاق على اعادة تصليح الساعة بكلفة ٢٢ مليون دينار من قبل المصلح جنيد .لقد سرقت بعض أجزائها كما سرق السلم الخشبي ، . وقد تكلفت شركة الوجدان في اعادة ترميمها.

انقاض الدكتاتور

توجه الشيخ الى مكان يقع قرب الجدار الخارجي للمبنى انتشرت فيه انقاض صواريخ قديمة !!وصناديق مكسورة قال "هنا بعض ماتبقى من آثار الماكيتات في المتحف المعمول في زمن الدكتاتور ،والذي كان يضم أيضا الحصان الأبيض المحنط الذي امتطاه بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية. وبعد حرب احتلال الكويت استغلت هذه القاعات لتكون متحفا للمباني والمؤسسات الحكومية التي تعرضت الى القصف أثناء الحرب بعد ان عمل لها قوالب مشابهة (ماكيتات) حتى انه تم الاحتفاظ بالباص الانكليزي الذي جاء به (جورج كلوي) صديق الدكتاتور ، بعد ان قام برحلة ضد الحصار ومر بعدد كبير من الدول وصولا الى بغداد ،لقد احرق بعض المواطنين هذا الباص بعد السقوط".

في مديرية الآثار

في مكان أخر اخذ الدكتور حميد محمد حسن، مدير قسم المسح والتوثيق التراثي في مديرية الآثار والتراث يتحدث عن تاريخ القشلة وجوارها قائلا" "لم يكن لأهل بغداد أية علاقة بموقع القشلة فهو مخصص لإيواء الجنود والجندرمة،وهم يستيقظون على صوت الساعة الكبيرة ليتدربوا في الصباح .ولهم قيادتهم وأنظمتهم وقاعاتهم في جنوب البناية أي في الجهة الأخرى من بيت الوالي.وعندما جاء الانكليز اتخذوها مقرا لقيادتهم بسبب المساحة الكبيرة والموقع المميز .وفي الثمانينات استغلت الموقع مديرية الآثار بعد ان كان تابعاً للمالية فأزالت المديرية الحواجز الموضوعة ورممت الأجزاء المهدمة وأعيدت حتى أصبحت هنالك أربع قاعات ".

واصل دكتور حميد وصفه للمكان قائلا" أنشئت القشلة في العهد العثماني أيام مدحت باشا وسبقت هذا العمل أعمال عمرانية قام بها في الفترة الاولى الوالي نامق باشا واتخذت مقرا للقوات العثمانية وقوات المشاة (البيادة) ولهذا قد يقال في اللجهة العراقية ،اتيت بيادة أي اتيت مشيا. وهي متألفة من أربع قاعات اثنتان منها في الطابق الأرضي واثنتان في الطابق العلوي ،استعملت مبيتا للجنود العثمانيين وفي الجانب الجنوبي منها كانت مقرا للإدارة وقشلة البيادة تختلف عن قشلة المدفعية التي انفتح قسم منها داخل القصر العباسي وهي مخصصة للمدافع والفتحات الجانبية المخصصة لرمي المدافع "

أهالي بغداد

وأضاف الدكتور حميد قائلا: وكان أهالي بغداد يسمعون صوت الساعة آنذاك،لان بغداد لم تكن مترامية الإطراف، فكانت تتألف من محلة باب الشيخ ومحلة الدوريين العلاوي والمحطة العالمية والرحمانية والعطيفية والكريمات .وبعد سقوط الدولة العثمانية اتخذت مقرا للقوات البريطانية وفي إحدى الغرف انشئ المتحف العراقي.وعندما فكرت الحكومة الوطنية في استخدامها مقرات لبعض وزاراتها مثل وزارة المالية والعدل ووزارة المعارف كانت الحكومة متركزة هنا . لقد اتخذوها مقرا في العهد العثماني لأنها منطقة حصينة وتشرف على جانبي الرصافة والكرخ ،كما انها نقطة لانطلاق الجنود من قلب بغداد يتوجهون الى المناطق المجاورة اما منزل الوالي فمازال في حالة جيدة .والقشلة استعلمت كمقر لبعض دوائر الحكومة ايام الملكية ، وكانت هنالك غرفة لنوري السعيد"

ندوة في وزارة الثقافة

في ندوة عقدتها وزارة الثقافة في اذار عام ٢٠٠٤ حول (القشلة الماضي والمستقبل) وحضرها عدد من اهل الاختصاص، قسمت المراحل الاعمارية التي مرت بها القشلة الى ثلاث مراحل:

الحكم العثماني

فترة الحكم العثماني وجاء ذكر تاريخ إنشاء الطابق الأرضي في عهد الوالي نامق باشا(١٨٥١-١٨٥٢) المكون من كتلة على شكل حرف (L) باللاتينية ،يكون الضلع الطويل امتدادا الى شارع حسن باشا.ويتميز الطابع المعماري بالإيقاع الواضح من الخارج وكذلك الداخل (order) والأسلوب الإنشائي الذي اعتمد لهذا الطابق هو استعمال المواد المحلية والتسقيف بالتقنية الاجرية.اما الطابق الأول فأنشئ في عهد الوالي مدحت باشا وأضيف للتكوين المعماري برج الساعة على محور المدخل الرئيس.

الاحتلال الانكليزي

في فترة الاحتلال الانكليزي استعملت فيها (العقادة) بالطابوق والشيلمان للطابق الأول وكذلك ترميم الجزء العلوي لبرج الساعة واضيف في هذه الفترة جناح اخر استعمل كدائرة الاشغال العامة.

الحكم الوطني

في فترة الحكم الوطني ادخلت على المبنى قواطع وسقوف ثانوية داخلية كي يلائم المبنى الوظائف الادارية المختلفة.

دراسات مهمة

وفي دراسة قام بها الاستاذ ياسر حكمت عبد المجيد والمنشورة في مجلة(الهندسة والتكنولوجيا) المجلد ١٩ العدد ١ عام ٢٠٠٠ أكد فيها على تاثير عمارة عصر النهضة الايطالية على العديد من المنشآت في العهد العثماني لتلك الفترة التي بدات فكرة التحديث لمؤسسات الامبراطوية العثمانية.اتخذ الباحث من المجمع الحضري لسان ماركوس (Sant Marcos)في فينيسيا ايطاليا مثالا للمقارنة ،إضافة الى مبادئ وأسس تصميمية اخرى،كانت متبعة في العمارة في حينه أن مبدا الانفتاح الى الخارج،على ضفة نهر دجلة لمجمع القشلة مخالف لماهو سائد بالانفتاح على الداخل ،كما هو في القصر العباسي والمدرسة المستنصرية .ثانيا:أن أسلوب توزيع الكتل والنظام الواضح الذي يظهر في الخارج والداخل .والمحور الرئيس في المدخل الذي ينتهي ببرج الساعة ليكون بؤرة جذب لخطوط الرؤية،والذي اعتمد في اغلب الاحيان في عمارة النهضة الايطالية .ثالثا: تأطير مشهد برج الساعة من خلال المدخل الرئيس،وهذه كانت معتمدة كثيرا في التصاميم للفضاءات الحضرية في ايطاليا على وجه الخصوص.

استنتاجات البحث

وتمضى الدراسة قائلة: من خلال الدراسة والاستعراض السابق يمكن اقتراح خطوات نظرية وكذلك تطبيقية لاحياء مبنى القشلة.فمنهاج الاشغال يمكن ان يكون ثقافيا وترفيهيا،وبشكل لايحدث تلوثا للقيم التأريخية والقيم المعمارية التي اقيم عليها،علما بأن المبنى بمساحته الواسعة البالغة (١٠٢٥٠)م٢ يستوعب اكثر من فعالية،اذ انه لايمكن اقتراح منهاج تصميمي معين لمبنى القشلة دون الرجوع الى التحديدات للمنطقة،لذلك يمكن القول:اولا: دراسة مقترحات تصميمة لاحياء المنطقة ككل والتي يكون مبنى القشلة جزءاً منها .ثانيا: دراسة منهاج تصميمي لمركز ثقافي او مدرسة للفنون النبيلة او متحف متخصص .ثالثا:الاهتمام والتأكيد على تصميم الحدائق الخارجية والمطلة على نهر دجلة بشكل ينسجم وطبيعة التصميم المعماري واغناء المبنى بربط الداخل مع الخارج.

الخطوات الاجرائية

اولا: اجراء عملية تنظيف وازالة جميع الشوائب والإضافات الموجودة في الموقع حاليا. ثانيا: الرجوع الى المسح الموقعي الذي قامت به الشركة الايطالية بالتعاون مع مديرية الاثار والتراث. ثالثا: جمع كل الوثائق والتحريات المتوفرة للمبنى. رابعا: تحديد البنى التحتية والخدمات للمبنى. خامسا: دراسة المنهاج التصميمي المقترح وانسجامه وطبيعة الموقع.

المقترحات والتوصيات

اجمع الحاضرون في تلك الندوة على الأهمية التاريخية والسياحية والاقتصادية والاجتماعية لتطوير مبنى القشلة والمنطقة المجاورة كجزء عضوي من عملية إحياء مدينة بغداد التقليدية.واكدوا على ان يتم التطوير بالصيانة من ناحية والتأهيل والتوظيف من ناحية اخرى،كما اجمع الحاضرون على اهمية تطوير البنى التحتية كخطوة اولى .وتوصلوا الى التوصيات التالية:

جمع الوثائق السابقة للقشلة والعمل على اجراء مسح ميداني شامل للمنطقة والمبنى.العمل على استعادة مانهب من المبنى في الاحداث الاخيرة في فترة الانفلات الامني. العمل على تطوير منهاج تصميمي من خلال تشكيل هيئة استشارية تتكون من المتخصصين.بالإضافة الى نخبة معينة من وزارة الثقافة وامانة بغداد ووزارة التخطيط والتعاون الانمائي ومنظمة اليونسكو،واستمرار الحوار مع اهالي المحلة بشكل خاص والبغداديين بشكل عام للاستفادة من ارائهم.بلورة المنهاج التصميمي اعلاه الى مسابقة عالمية مفتوحة تشترك فيها المكتبات العراقية وتعمل بموجب افكار مطروحة ومستفيدة من التجارب العالمية المشابهة،واختيار التصميم المناسب الذي يتعامل مع التراث بحساسية .

نهاية رحلة الشيخ

كان الشيخ عدنان يعجبه كثيرا ان ينظر الى القشلة من على جسر الشهداء،انه يستمتع بمنظر برج الساعة الكبير،قال "يمكن من هناك ان تحصل على أجمل صور لبغداد".وبينما كان يتحدث كانت النوارس تنزل وتصعد على جانبي الجسر لتلتقط ما يرميه إليها بعض الناس من فتات الخبز لتطير بعدها الى جانب الرصافة وتكاد ان ترتطم ببرج ساعة القشلة الذي بدا كأنه عملاق يتحدى الزمان والفناء.

حاول بعض اللصوص أن يسرقوا جرس الساعة الذي يزن طناً من النحاس

ساحة القشلة شهدت تتويج الملك فيصل الأول